جِحا وشِلّتُه

قصصٌ شعبيّةٌ منَ الشّرقِ

كتابةُ مروان الأَحدَب
رسومُ مايا مَجدَلاني



سمير

جِحا وشِلّتُه

قصصٌ شعبيّةٌ منَ الشّرقِ

نُشِرَ للمرّة الأولى باللّغة الفرنسيّة لدى سمير دار نشر، عام 2012 تحت عنوان: Géha et compagnie.
صياغة مستحدثة عن Antoine Chami, *Les contes de l'Orient* ©مكتبة سمير 1997.

تصميم: پولا عبده حنّا
إخراج فنّيّ: جووانّا المير – مغالي أ. سَفَر عبّود
إدارة النّشر: مروان عبده حنّا

سنّ الفيل، الجسر الواطي
ص. ب. 55542 بيروت، لبنان
www.samirediteur.com
ISBN 978-9953-31-466-2

جِحا وشِلّتُه

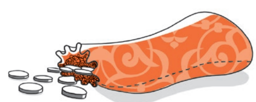
قصصٌ شعبيّةٌ منَ الشّرقِ

كتابةُ مروان الأَحدَب
رسومُ مايا مَجدَلاني

ترجمَته منَ اللّغةِ الفرنسيّةِ
إليسار صانع أَسمَر

سمير

جِحا يَبيعُ حِمارَهُ



عَن طُرفَةٍ لِنَصرِ الدّينِ خوجَة

1

كانَت مَدينَةُ الخَليفَةِ هارونَ الرَّشيدِ، تَعُدُّ مِن بَينِ سُكّانِها رَجُلًا طَيِّبًا يُدعى جِحا، يَعيشُ مَعَ زَوجَتِهِ فاطِمَةَ في كوخٍ مُتَواضِعٍ. كانَت ثَروَةُ جِحا حِمارًا يَكُدُّهُ في العَمَلِ مِنَ الصَّباحِ حَتّى المَساءِ لِكَي يُحَصِّلَ مَعيشَتَهُ وَمَعيشَةَ زَوجَتِهِ.

في المَدينَةِ صَيفًا، كانَت حَرارَةُ الشَّمسِ تَشتَدُّ، وَيَنابيعُ الماءِ النّادِرَةُ تَنضُبُ. وَكانَ سُكّانُ المَدينَةِ

مُتَعَوِّدينَ عَلى ارتِيادِ النَّهرِ حامِلينَ أَوعِيَةً كَبيرَةً، يَملَأونَها ثُمَّ يَحفَظونَها في أَماكِنَ بارِدَةٍ مِن مَنازِلِهِم، لِكَي يَتَوَفَّرَ لَدَيهِم ما يَشرَبونَهُ لِبِضعَةِ أَيّامٍ. وَلكِن، إذا فاجَأَ العَطَشُ رَجُلًا في الشّارِعِ، فَما كانَ عَلَيهِ إلّا أَن يَتَحامَلَ عَلى نَفسِهِ، وَيَصبِرَ مُنتَظِرًا أَن يَحينَ وَقتُ العَودَةِ إلى بَيتِهِ كَي يَرتَوِيَ.

مُلاحِظًا ذلِكَ، خَطَرَت لِجِحا فِكرَةٌ. فَقَد عَلَّقَ عَلى ظَهرِ حِمارِهِ جَرَّتَينِ مِنَ الفَخّارِ، وَباتَ فَجرَ كُلِّ يَومٍ، مَعَ بُزوغِ النَّهارِ، يَسوقُ حِمارَهُ إلى النَّهرِ، حَيثُ يَملَأُ الجَرَّتَينِ حَتّى الشَّفَةِ، وَيجولُ بَعدَ ذلِكَ في أَرجاءِ المَدينَةِ صائِحًا:

– ماءٌ عَذبٌ! عَذبٌ جِدًّا! مَن يُريدُ ماءً عَذبًا؟

كانَ السُّكّانُ العِطاشُ كُلُّهُم يَهرَعونَ إلَيهِ فَورًا، وَفي أَيديهِم أَقداحٌ فارِغَةٌ. لَم يَكُنْ عَلى جِحا إلّا أَن يَملَأَها. وَحالَما يَرتَوونَ، يُبارِكونَ المُنقِذَ لِمَجيئِهِ إلَيهِم بِالنَّجدَةِ.

بِفَضلِ هذِهِ التِّجارَةِ البَسيطَةِ، استَطاعَ جِحا أَن يَكسِبَ رِزقَهُ. لكِنَّ هذا العَمَلَ لَم يَكُنْ مُريحًا قَطُّ. فَقَد كانَتِ الجَرَّتانِ تَفرَغانِ بِأَسرَعَ مِنَ المُتَوَقَّعِ، مُلزِمَتَينِ الرَّجُلَ المِسكينَ بِالذَّهابِ وَالإيابِ مِن دونِ تَوَقُّفٍ في الشَّوارِعِ المُؤَدِّيَةِ إلى النَّهرِ. وَفي نِهايَةِ النَّهارِ، عِندَما يَعودُ جِحا إلى بَيتِهِ، يَكونُ مُنهَكَ القِوى، فَيَرتَمي عَلى فِراشِهِ المَصنوعِ مِنَ القَشِّ، وَيَنامُ فَورًا.

وَكانَت فاطِمَةُ أيضًا، تَعيشُ أَيّامًا مُضنِيَةً، وَهيَ تَزرَعُ الحَديقَةَ الصَّغيرَةَ حَولَ الكوخِ، وَتَبيعُ جُزءًا مِمّا تَجنيهِ مِن خُضَرٍ في السّوقِ الأَقرَبِ.

وَمَعَ الوَقتِ، وَبِفَضلِ العَمَلِ الشّاقِّ وَالحِرمانِ، استَطاعَ الزَّوجانِ أَن يَدَّخِرا مَبلَغًا صَغيرًا مِنَ المالِ لِلأَيّامِ العَصيبَةِ.



2

ذاتَ مَساءٍ، قالَ جحا لِزَوجَتِهِ:

– فاطِمَةُ، حِمارُنا بَدَأَ يَشيخُ. وَقَريبًا، لَن يَكونَ قادِرًا عَلى القِيامِ بِمُهِمّاتِهِ اليَومِيَّةِ. أُريدُ أَن آخُذَهُ إلى السّوقِ، وَأَبيعَهُ كَي أَشتَرِيَ حِمارًا آخَرَ شابًّا.

أَمّا فاطِمَةُ، الَّتي كانَت تَتَمَتَّعُ بِفِكرٍ نَيِّرٍ، فَعَقَدَت حاجِبَيها قائِلَةً:

– جِحا، لا أَعتَقِدُ أَنَّها فِكرَةٌ صائِبَةٌ. ما زالَ هذا

الحَيَوانُ قَوِيًّا وَقادِرًا عَلى خِدمَتِنا سَنَواتٍ طِوالًا. ثُمَّ هَل نَسيْتَ أَنَّ الحِمارَ الشّابَّ باهِظُ الثَّمَنِ؟

– وَلكِن، بِفَضلِ اللّهِ، لَدَينا مالٌ مُدَّخَرٌ!

– هذا المالُ مَحفوظٌ لِأَوقاتِ الشِّدَّةِ. أَليسَ هذا ما اتَّفَقْنا دائِمًا عَلَيهِ؟

لَم يَجرُؤِ الزَّوجُ عَلى مُعارَضَةِ زَوجَتِهِ. وَلكِنَّهُ تِلكَ اللَّيلَةَ، فيما كانَت نائِمَةً، نَهَضَ مِنَ السَّريرِ، وَاستَولى عَلى المالِ الـمُدَّخَرِ، وَدَسَّهُ في جَيبِهِ.

في صَباحِ اليَومِ التّالي، وَدَّعَ زَوجَتَهُ كَالعادَةِ، وَسَلَكَ الطَّريقَ بِاتِّجاهِ النَّهرِ. وَما إن أَصبَحَ بَعيدًا عَن نَظَرِ فاطِمَةَ حَتّى بَدَّلَ وُجهَتَهُ قاصِدًا السّوقَ، حَيثُ تَقَرَّرَ، في ذلِكَ اليَومِ، انعِقادُ مَعرِضٍ ضَخمٍ يَجمَعُ بائِعي الـمَنطِقَةِ كُلَّهُم.

عِندَما وَصَلَ إلى الـسّاحَةِ، كانَتِ الزَّحمَةُ في أَوجِها. قَرَوِيّونَ جاؤوا، مِن مُدُنٍ مُجاوِرَةٍ، يَعرِضونَ غَلّاتِهِم عَلى

بائِعينَ صِغارٍ جَوّالينَ. أَمّا مُرَبّو الماشِيَةِ، فَكانوا يُخالِطونَ بائِعي الدَّواجِنِ وَالخُيولِ. وَكانَ رَجُلٌ بَينَهُم قَد جَمَعَ حَميرًا في حَظيرَةٍ صَغيرَةٍ، فَاقتَرَبَ مِنهُ جِحا وَقالَ لَهُ:

– أَيُّها الرَّجُلُ الطَّيِّبُ، أَوَدُّ أَن تَبيعَ الحَيَوانَ الَّذي مَعي. وَالسِّعرُ الَّذي تَحصُلُ عَلَيهِ، أُضيفُ إِلَيهِ مَبلَغًا آخَرَ كَي أَشتَرِيَ مِنكَ حِمارًا شابًّا.

بَعدَ أَن قَيَّمَ البائِعُ، لِبُرهَةٍ، الشَّخصَ الَّذي عَرَضَ عَلَيهِ الصَّفقَةَ، مَنَحَهُ مُوافَقَتَهُ. ثُمَّ أَدخَلَ الحَيَوانَ إِلى الحَظيرَةِ، حَيثُ كانَت حَميرُ أُخرى تَنتَظِرُ أَن تُباعَ، وَقالَ لِجِحا:

– عُدْ في نِهايَةِ الصَّبيحَةِ، فَتَكونَ الصَّفقَةُ قَد تَمَّت. وَعِندَئِذٍ تَستَطيعُ أَن تَشتَرِيَ ما شِئْتَ مِنَ الحَميرِ.

شَكَرَ جِحا البائِعَ بِحَرارَةٍ، وَذَهَبَ لِيَستَريحَ، عَلى مَقرُبَةٍ مِنَ السّوقِ، عِندَ جِذعِ شَجَرَةٍ كانَت تُقَدِّمُ لِزائِريها كُلَّ بُرودَةِ أَوراقِها.

3

كانَ البائِعُ تاجِرًا مُحَنَّكًا، يُجيدُ تَقديمَ بِضاعَتِهِ في أَبهى حُلَّةٍ. وَمَعَ حُلولِ الظُّهرِ، كانَ قَد نَجَحَ تَقريبًا في بَيعِ كُلِّ الحَيَواناتِ المَوضوعَةِ في حَظيرَتِهِ. وَلَم يَبقَ سِوى حِمارِ جِحا العَجوزِ، الَّذي لَم يَرغَبْ أَحَدٌ فيهِ. عِندَئِذٍ، قَرَّرَ أَن يَستَخدِمَ كُلَّ ما أوتِيَ مِن حيلَةٍ. فَاعتَلى صُندوقَ السَّفَرِ الكَبيرَ الخاصَّ بِهِ، وَراحَ يَجمَعُ النّاسَ صائِحًا:

– أَيُّها النّاسُ الطَّيِّبونَ، اقترِبوا! تَعالَوا وَتَأَمَّلوا هذا الحِمارَ الجَميلَ! هَل رَأَت أَعيُنُكُم مِثلَ هذا الحَيَوانِ مِن قَبلُ؟ السَّنَواتُ زادَتهُ قُوَّةً بِحَيثُ أَصبَحَ قادِرًا عَلى القِيامِ بِأَكثَرِ الأَعمالِ مَشَقَّةً! بِاللّهِ عَلَيكُمُ انظُروا إِلى عافِيَةِ عُرقوبَيهِ! وَكَثافَةِ وَبَرِهِ! وَبَريقِ عَينَيهِ! إِنَّ سُلطانًا وَحدَهُ جَديرٌ بِامتِلاكِ خادِمٍ مُماثِلٍ! آهٍ! فَقَط لَو كانَ هذا الحِمارُ لي، لَكُنْتُ، مِن دونِ شَكٍّ، أَسعَدَ الرِّجالِ!

كانَ المارَّةُ قَد تَجَمَّعوا حَولَ الحَيَوانِ، وَأَخَذوا يَتَأَمَّلونَهُ بِاهتِمامٍ أَكثَرَ فَأَكثَرَ. وَلَم يَتَرَدَّدْ بَعضُهُم في مُلامَسَةِ وَبَرِهِ، وَتَحَسُّسِ حَنايا أَعضائِهِ المُتَناسِقَةِ. وَبَينَهُم، كانَ جِحا الَّذي اجتَذَبَهُ كَذلِكَ خِطابُ البائِعِ. فَقَدِ اقتَرَبَ كَثيرًا مِنَ الحَيَوانِ، وَراحَ يَتَفَحَّصُ بِدِقَّةٍ كُلَّ قِسمٍ مِن جَسَدِهِ، وَقالَ في نَفسِهِ:

«بِرَبّي، الرَّجُلُ مُحِقٌّ. فَالعَضَلاتُ قَوِيَّةٌ، وَالحُلَّةُ مُذهِلَةٌ،



وَالعَينُ بَرّاقَةٌ. هذا الحِمارُ قَد قُدَّ مِنَ الصَّخرِ. أَعتَقِدُ أَنَّني لَم أَرَ أَجمَلَ مِنهُ قَطٌّ!»

في ذلِكَ الوَقتِ، كانَ البائِعُ يُتابِعُ مَديحَهُ:

– كانَ يَنبَغي أَن يولَدَ حِصانًا، أُؤَكِّدُ لَكُم هذا! لَدى رُؤيَتِهِ يَخِبُّ، قَد يُخالُ أَنَّهُ مِن أَجوَدِ الأَحصِنَةِ الأَصيلَةِ! عَلى مَطِيَّةٍ كَهذِهِ نَستَطيعُ أَن نَغزُوَ العالَمَ!

إرتَفَعَت بَينَ الحَشدِ تَمتَمَةُ رِضًى. كانَ الجَميعُ يَمدَحُ الحَيَوانَ. عِندَئِذٍ أَعلَنَ البائِعُ:

– أُحَدِّدُ المَزادَ بِثَلاثَةِ دَنانيرَ!

كانَت تِلكَ هِيَ القيمَةَ الَّتي يُساويها عادَةً حِمارٌ عَجوزٌ. لِلحالِ، وَسطَ الحَشدِ، صَرَخَ رَجُلٌ طَويلٌ ناحِلٌ:

– أَنا أَشتَري!

فَقالَ جِحا في نَفسِهِ: «ثَلاثَةُ دَنانيرَ فَقَط، لِحَيَوانٍ كَهذا؟ أَبَدًا!» ثُمَّ صاحَ بِالبائِعِ:

– أَنا أَدفَعُ أَربَعَةً!

– وَأَنا، خَمسَةً! قالَتِ امرَأَةٌ عَجوزٌ بِجانِبِهِ.

– سِتَّةً! زايَدَ الطَّويلُ النّاحِلُ.

– سَبعَةً! قالَ جِحا.

– ثَمانِيَةً! قالَتِ المَرأَةُ العَجوزُ بِحَزم.

– تِسعَةَ دَنانيرَ! وَهذا أَقصى ما أَدفَعُهُ! صاحَ الطَّويلُ النّاحِلُ.

– أَدفَعُ عِشرينَ دينارًا! أَعلَنَ جِحا مُنتَصِرًا.

حَلَّ الصَّمتُ فَجأَةً. فَتَحَتِ المَرأَةُ العَجوزُ عَينَينِ كَبيرَتَينِ. كادَ الطَّويلُ النّاحِلُ أَن يَقَعَ عَلى قَفاهُ. أَمّا باقي الحَشدِ فَوَجَّهَ أَنظارَهُ نَحوَ جِحا. ثُمَّ سَأَلَ البائِعُ:

– مَن يَزيدُ؟

بِما أَنَّ أَحَدًا لَم يَتَفَوَّهْ بِكَلِمَةٍ، تابَعَ البائِعُ:

– رَسا المَزادُ عَلى هذا الرَّجُلِ السَّعيدِ عِندَ عِشرينَ

دينارًا فَقَط!...الدَّفعُ فَورِيٌّ حَتمًا.

صَفَّقَ الحَشدُ بِكامِلِهِ لِلشّاري، وَبَعدَ لَحَظاتٍ، عادَ جِحا إلى بَيتِهِ عَلى ظَهرِ الحَيَوانِ، راضِيًا تَمامًا.

4

كانَت فاطِمَةُ تَحرُثُ الحَديقَةَ، عِندَما رَأَت زَوجَها عائِدًا، وَسُرعانَ ما سَأَلَتهُ مُستَغرِبَةً:

– ما الأَمرُ؟ الشَّمسُ ما زالَت في كَبِدِ السَّماءِ. هَل أَنتَ مُتعَبٌ؟!

– عَزيزَتي فاطِمَةَ، تَأَمَّلي قَليلًا الحِمارَ الجَديدَ الَّذي اشتَرَيْتُهُ لِلتَّوِّ.

نَظَرَتِ المَرأَةُ إلى الحَيَوانِ، ثُمَّ إلى زَوجِها.

– حِمارٌ جَديدٌ؟ وَلكِن أَينَ هُوَ؟

أَجابَ جِحا ضاحِكًا:

– تَحتَ مُؤَخَّرَتي، هَيّا! ما رَأيُكِ؟

أَجابَت فاطِمَةُ بِذُهولٍ:

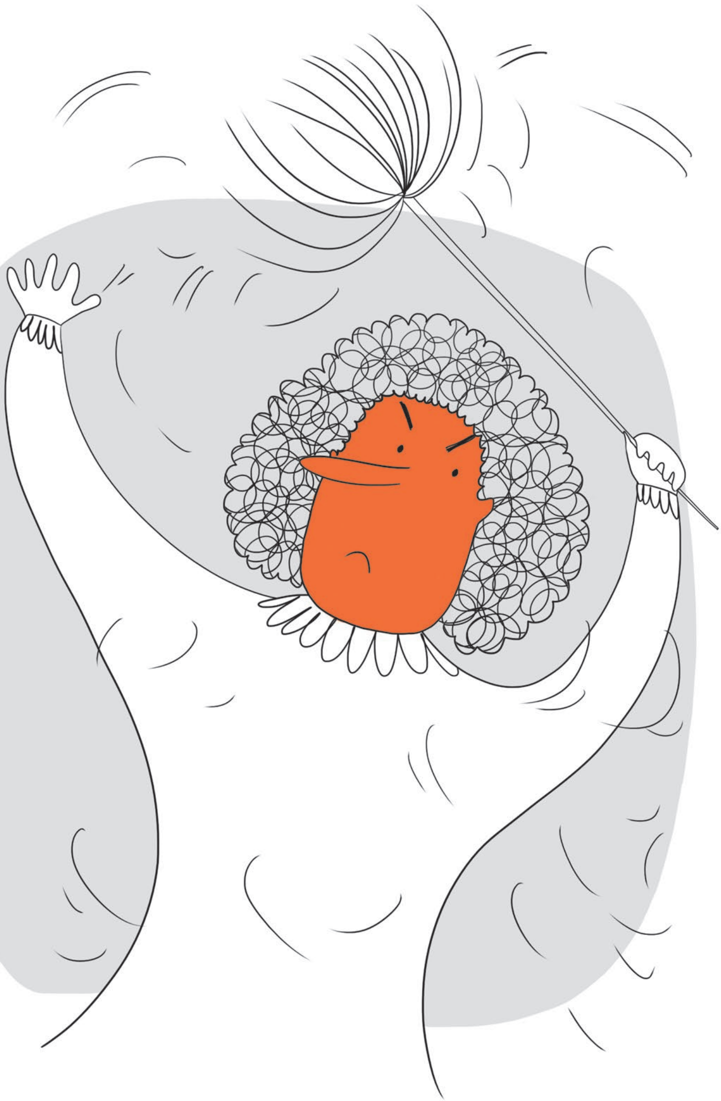
– لا أَعرِفُ ماذا أَقولُ! أَنتَ تَجلِسُ حَقًّا عَلى ظَهرِ حِمارٍ، لكِنَّ هذا كانَ دائِمًا لَنا!

عِندَئِذٍ قَفَزَ جِحا عَن مَطِيَّتِهِ وَاقتَرَبَ مِن زَوجَتِهِ، فَقالَ بِجِدِّيَّةٍ أَكبَرَ:

– فاطِمَةُ، أَعرِفُ أَنَّكِ امرَأَةٌ بَسيطَةٌ قَليلًا، وَلكِن أَطلُبُ مِنكِ أَن تُظهِري، وَلَو لِمَرَّةٍ، قَليلًا مِنَ الوَعيِ. أُنظُري إلى هذا الحَيَوانِ كَم هُوَ جَميلٌ! أَلَم أُحَقِّقْ بِشِرائِهِ صَفقَةً جَيِّدَةً؟ ما رَأيُكِ؟

حَدَّقَتِ المَرأَةُ في زَوجِها بِاهتِمامٍ، ثُمَّ قالَت لَهُ:

– جِحا، هَل تَسخَرُ مِنّي؟ كَيفَ لَكَ أَن تَشتَرِيَ هذا



الحِمارَ ما دامَ أَصلًا لَنا؟

– كانَ لَنا، عَزيزَتي فاطِمَةَ. هذا يُحدِثُ فَرقًا كَبيرًا. وَلكِنَّني هذا الصَّباحَ بِعْتُهُ، وَمِن ثُمَّ اشتَرَيْتُهُ مُجَدَّدًا.

وَبِما أَنَّها لَم تَفهَمْ، شَرَحَ لَها المَسأَلَةَ بِالتَّفصيلِ، وَما كادَ يُنهي كَلامَهُ حَتّى سَأَلَتهُ:

– وَماذا بَقِيَ مِنَ العِشرينَ دينارًا الَّتي تَعِبْنا في ادِّخارِها؟

– في الحَقيقَةِ، لا شَيءَ. كانَ لا بُدَّ مِن إنفاقِ هذا المَبلَغِ لِشِراءِ حَيَوانٍ جَميلٍ كَهذا.

– لكِنَّ الحِمارَ كانَ لَنا، يا لَكَ مِن أَحمَقَ! العِشرونَ دينارًا الَّتي أَنفَقْتَها، كانَ يَجِبُ أَن تَعودَ إلَيكَ! ما كانَ عَلَيكَ أَن تَدفَعَ شَيئًا!

بَقِيَ جِحا بِضعَ لَحَظاتٍ صامِتًا. ثُمَّ عَقَدَ حاجِبَيهِ وَراحَ يُفَكِّرُ. لَقَد فَكَّرَ مَلِيًّا بِمَنطِقِ زَوجَتِهِ، وَلكِنَّهُ لَم

الفِهرِس

طُبِعَ لدى مطابع دار الكتب – دوتس في بيروت، 2013.
جُلِّدَ لدى فؤاد البعَينو للتّجليد ش.م.م.

في هذِهِ الحِكاياتِ الشَّعبِيَّةِ الآتِيَةِ مِنَ الشَّرقِ، لَيسَ نادِرًا أَن تُقَرِّرَ عَفاريتُ غَريبَةٌ مَصيرَ أَحياءٍ، وَلا أَن تَبدَأَ حَيَواناتٌ وَديعَةٌ بِالفَلسَفَةِ كَأَسيادِها... والحَياةُ مُذهِلَةٌ لِلغايَةِ أَحيانًا، بِحَيثُ لا يَبدو عجيبًا أَن تَرى رَجُلًا فَقيرًا يُصبِحُ أَفضَلَ صَديقٍ لِرَجُلٍ نافِذٍ.

جِحا شَخصِيَّةٌ بارِزَةٌ في عَدَدٍ كَبيرٍ مِن هذِهِ المُغامَراتِ، وَهوَ يُشبِهُ هذا العالَمَ المُحَيِّرَ: إِنَّهُ شُجاعٌ وَجَبانٌ، ماكِرٌ وَساذَجٌ، مُحتالٌ وَنَزيهٌ، يُسَيِّرُ حَياتَهُ كَيفَما تَيَسَّرَ، وَيَبدو دائِمًا صَعبَ الفَهمِ؛ لَكِنَّهُ عَلى الرَّغمِ مِن ذلِكَ، لا يَنسى مُطلَقًا أَن يَبقى إِنسانِيًّا.

هذِهِ الحِكاياتُ المُستَوحاةُ مِن قِصَصِ نَصرِ الدّينِ خوجَة، وَأَلفِ لَيلَةٍ وَلَيلَةٍ، وَكَليلَةَ وَدِمنَةَ، تُقَدِّمُ لِلقُرّاءِ الصِّغارِ، بِلُغَةٍ سَلِسَةٍ وَسَهلَةٍ، ميراثَ حِكمَةٍ عَصرِيَّةٍ أَبَدًا.

ISBN 978-9953-31-466-2
9 789953 314662
www.samirediteur.com